(٣٩)

التَّوَّابُ ﷻ

قال عمر بن الخطاب ﷺ: "اجلسوا إلى التوابين؛ فإنهم أرق أفئدةً".

أَسَأْتُ وَلَمْ أُحْسِنْ، وَجِئْتُكَ تَائِبًا ... وَأَنَّى لِعَبْدٍ مِنْ مَوَالِيهِ مَهْرَبُ

يُؤَمِّلُ غُفْرَانًا فَإِنْ خَابَ ظَنُّهُ ... فَمَا أَحَدٌ مِنْهُ عَلَى الأَرْضِ أَخْيَبُ

نعيش مع اسم الله: (التواب ﷻ):

ما أحلى اسم الله التواب؛ يعطي المذنب أملاً ليبدأ من جديد في مرحلة السعادة، ويخرج به من دائرة الإحباط والظلام، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:١٠٤].

ربنا ﷻ هو التوّاب، وصف نفسه بالتواب بصيغة المبالغة؛ لكثرة من يتوب عليه، ولما كانت المعاصي متكررةً من عباده؛ جاء بصيغة المبالغة، ليقابل الخطايا الكبيرة بالتوبة الواسعة.

فهو ﷻ ما زال يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين؛ حتى لو تكررت التوبة تكرر القبول إلى ما لا نهاية.

قـال ﷻ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].

جـاء في «المستدرك»: أن رجلاً جـاء إلى الـنبي ﷺ فقـال: يـا رسـول الله! أحدنا يذنب، قال: «يُكْتَبُ عليْهِ»، ثم قال: يستغفر منه ويتوب، قال: «يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، ولاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[حديث حسن].

فكل من تاب إلى الله توبةً نصوحًا؛ تاب الله عليه وقبله.

❐ ما أكرم الله!

وانظـر إلى كـرم الله حـين أكـرم عبـده أن جعـل توبتـه محفوفةً بتوبـة مـن الله عليـه قبلـها، وتوبـة منـه بعـدها، فتوبـة العبـد بـين تـوبتين مـن ربـه ﷻ: سابقة، ولاحقة.

فإنه تاب عليه أولاً: إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا؛ حيث حرك دواعي قلبه للتوبة، ثم قام بالتوبة، وهذا توفيق من الله الكريم الرحيم التواب.

ثم لما تاب بالفعل تاب الله عليه؛ فقبل توبته، وعفا عن خطاياه وذنوبه، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة: ١١٨].

لا إله إلا الله، له الفضل بالتوبة أولاً وأخيراً.

وَكَذَلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُوْلُهَا بَعْدَ المَتَابِ بِمِنَّةِ المَنَّانِ

وكذا الأعمال الصالحة بهذه المثابة؛ألهمها للعبد، ثم أثابه عليها؛ فالله المبتدئ بالإحسان والنعم، المتفضل بالجود والكرم.

❐ ذكرى..

والتوبة: واجبة على البشر جميعًا، في جميع مراحل العمر، من مؤمنهم وعاصيهم؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾[النور:٣١].

والتوبة: من الكمال الذي يحبه الله، وليست نقصًا، والله ﷻ قد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة:٢٢٢]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[التوبة:١١٧].

وقال عن آدم ﷺ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[البقرة:٣٧].

وقال عن إبراهيم وإسماعيل ﷺ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾[البقرة:١٢٨].

وقال عن موسى ﷺ: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[الأعراف:١٤٣].

ومن المعلوم: أن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب -كبارها وصغارها-، وهم بما أخبر به عنهم من التوبة ترفع درجاتهم، وتعظم

حسناتهم؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وفي «صحيح البخاري» عنه ﷺ: أنه قال: «وَاللهِ! إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

❐ لولا أنكم تذنبون..

والله يعلم أن عباده لا يخلون من قصور ونقص، وقد خلقهم كذلك؛ لتظهر فيهم رحمته وغفرانه وتوبته، صح عنه ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لَكُمْ، لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ لَهُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا لَهُمْ»[رواه مسلم].

قال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

وقد امتدح الله نفسه تعالى بقبول توبة عباده؛ فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾[غافر:٣].

والله يريد من عباده: أن يعلموا أنه: يقبل توبة عبده؛ حتى ولو عظمت ذنوبه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣].

ربنا غني عنا، وعن عبادتنا، ومع ذلك يفرح فرحًا شديدًا بتوبة عبده إذا تاب، فما أكرم الله! وما أجمل الله! وما أرحم الله!

جاء في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ العَطَشُ.

ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ؛ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

قال ابن تيمية رحمه الله: "كلُّ من تابَ فهوَ حبيبُ الله"، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[البقرة:٢٢٢].

فحري بمن هذا وصفه في رحمته بعباده: أن يُحَبَّ الحبَّ كُلَّه، وأن يُعبَد وحده لا شريك له، وأن تظهر آثار هذه المحبة بإخلاص العبادة له، والتقرب إليه بطاعته ومحبة من يحبه وما يحبه، وببغض من يبغضه وما يبغضه.

قال بلال بن سعد : "إن لكم ربًّا ليس إلى عقاب أحدكم بسريع، يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويقبل على المقبل، ويعطف على المدبر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾[الشورى: ٢٥].

❐ على عتبة الباب..

التوبة: هروب من المعصية إلى الطاعة، ومن السيئة إلى الحسنة، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن.

إنها فرار من الخالق إلى أعتابه، وهروب من الجبار إلى رحابه، وعياذ

برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه لا نحصي ثناءً عليه، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفر منه إلا إليه؛ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾[الذاريات: ٥٠].

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إِنْ كَانَ لاَ يَرْجُوْكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَن يَلُوْذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجْرِمُ

قال علي بن أبي طالب ﷺ: "عجبًا لمن يهلك ومعه النجاة! قيل: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار".

قال ابن القيم ﷺ: "أغلب ما يحمل المسلم على الذنب (الاتكال على التوبة) ولو علم أنه قد يحال بينه وبينها لهاج خوفه".

والتوبة الصادقة لا تكون إلا بـ: ترك الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم معاودته، واستبداله بعمل صالح، ثم إذا كان متعلقاً بحق العباد فليتحلل من صاحبه.

قال شقيق البلخي ﷺ: "علامة التوبة: البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار".

والتوبة الصادقة مقبولة إلا في موضعين: إذا طلعت الشمس من مغربها، وعند الغرغرة.

❐ هزات إيقاظ..

وقد يبتلي الله ﷻ عبده المؤمن بما يتوب منه لتكمل عبوديته، ويتضرع

ويخشع وينيب إلى ربه.

فكم من إنسان ابتعد عن الله؛ فضيق الله ﷻ عليه حتى يرجع إليه، فلما رجع، وذاق طعم القرب منه، وشعر بنعمة الاستقامة والتوبة؛ شكر الله على هذه المصيبة والشدة التي كانت سببًا في نجاته وفلاحه، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾[السجدة:٢١].

فلو تركت على معاصيك وانحرافاتك ولم تتب، ورأيت النعم بين يديك؛ فاعلم أنك مبغوض إليه، وأن هذا استدراج منه لك؛ لأن الله ﷻ قَالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[الأنعام: ٤٤].

ثم إذا أعلنت التوبة؛ فاطلب من الله الثبات، فقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[حديث صحيح. رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

اللهم! تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واغفر لنا ولوالدينا؛ إنك أنت الغفور الرحيم.